جدران»

من كان يجلب له الكتب والصحف والزهور خفية، برفقة صديقه زكريا تامر. الكتب التي تنتهي ممزّقة ومبعثرة فوق الأرض، ومبقّعة ببقايا القهوة، كما ساعدته في تظهير مسرحيته «العصفور الأحدب» في نسختها النهائية وذلك بتحويلها من قصيدة طويلة إلى مسرحية متعدّدة الأصوات. مآثر كثيرة صنعتها صاحبة «حبر الإعدام» (1970) في حياته، سنجد مقاطع منها في روايته اليتيمة «الأرجوحة»، فهو يعترف بأن «حياته من دونها لا تساوي أكثر من علبة ثقاب». لا نلوم مزاج الماغوط العكر، لكننا في المقابل، لا يمكننا أن نتجاهل السطوة اللاحقة لاسمه، وخفوت حضور اسمها للسبب نفسه. إذ استولى الماغوط على غنائم الشهرة كاملة، الشهرة التي يستحق بالطبع، نظراً لتفرّد نصوصه ووحشيتها البلاغية والحياتية، بالإضافة إلى خصائص حياته التي ارتبطت بالتسكع والعناد ومديح الهامش، فيما كانت سنية صالح تنحدر إلى الداخل نحو متاهة الذات بشحنة ألم أكبر، ومتاهة خلاص مستحيل. هي ليست شاعرة واجهات، إنما كانت تتلمّس الضوء الداخلي لروحها المعطوبة وجحيمها الدنيوي، ومحاولة إنعاش أنوثة ذابلة قسراً. وكأن تسلّل وحش السرطان إلى عظامها المنهكة أتى ترجيعاً لخيباتها المتراكمة، هي التي «طلبتْ من الحب أن يكون ثأرها من العالم وحصانها السحري للنجاة»، لكن الحياة كانت تعمل في مكانٍ آخر، فلم يجدِ صراخها في إنقاذ حلمها الذي كان يتصدّع تحت مطارق الذكورة المنتصرة، والعنف، والإرهاب الكوني، إذ تعترف في حوارٍ

صورة لسنية صالح من أيام «مجلة شعر» ويظهر فيها الشاعر فؤاد رفقة وشقيقتها الناقدة خالدة سعيد

> لا يمكننا أن نتجاهل السطوة اللاحقة لاسم الماغوط، وخفوت حضور اسمها للسبب نفسه

معها، بقولها: «أنا أعجز أن أغيّر العالم أو أجمّله أو أهدمه أو أبنيه. أحسّ أنني كمن يتكلم في الحلم. ماذا يؤثر في العالم الكلام في الحلم؟». هذا الاستنتاج المبكر لمآل حياتها، أضفى على نصوصها حساسية مختلفة، ومعجماً فريداً وصادماً في مفرداته، ينطوي على عالم معدني، وبراكين من زرنيخ، وضمادات، وأسيد، وبوتاسيوم و«قمر طويل للنفايات». لكن قصيدتها، في مرحلةٍ ما، سوف تتأرجح في بعض مفاصلها بين المشهد العمومي ومكابدات الذات لتتعرى من البلاغة أو العمارة الشعرية، أو الابتكار، مكتفيةً بمخلّفات الحطام: «أيها الطائر المحلّق عبر الآفاق/ تذكَّر أن الرصاص في كل مكان/ تذكَّرني أنا المسافرة الأبدية/ طول حياتي أغدُّ السير/ وما تجاوزت حدود قبري»، كما ستكشف عن مطبخها الشعري بقولها: «عندما تحضر الحمّى الشعرية أخفف من حدة يقظتي، وأستسلم. ألغي مقاومتي لأعماقي إلى أقصى حد ممكن. تلي ذلك عملية تدفق داخلية، ترافقها عملية استسلام في الإرادة والحواس. ثم أدوّن ما أحصل عليه في مرحلة الهذيان هذه». لعل هذا ما يفسر عدم انشغالها الصريح بالزخرفة والمحو والإيقاع لمصلحة الهذيان وحده، في رهانٍ على قوة المعنى، وجسارة المواجهة، وعدالة الحلم، كأن تقول: «إنك من الزرنيخ يا سيّدي،/ أفتح فمي كل صباح وأبتلع جزءاً منك/ ولم تنتهِ/ قلت سيأتي يوم أتوحّش فيه/ وأفترسك/ ثم أستريح». حيال حطام هذا الكائن الجريح، سيسعى الماغوط لاحقاً إلى إنصاف شريكته معنوياً، وذلك عن طريق مبادلة القسوة القديمة بالندم، طلباً لغفران لم يعد مجدياً على الأرجح، باعترافات من العيار الثقيل في مديح الأنثى والشاعرة بآنٍ واحد: «سنيّة هي حبي الوحيد، نقيض الإرهاب والكراهية، عاشت معي ظروفاً صعبة، لكنها ظلّت على الدوام أكبر من مدينة وأكبر من كون. كانت شاعرة كبيرة في وطن صغير، وبين نقّاد صغار». أما مرثيته «سيّاف الزهور» التي كتبها خلال احتضارها وأكملها بعد رحيلها، فكانت مثقلة بالأسى في حدّه الأقصى: «ثلاثين سنةً، وأنت تحملينني على ظهرك كالجندي الجريح، وأنا لم أستطع أن أحملك بضع خطوات إلى قبرك/ أزوره متثاقلاً، وأعود متثاقلاً، لأنني لم أكن في حياتي كلها/ وفيّاً أو مبالياً، بحب أو شرف أو بطولة». إنها امرأة من الطباشير، وفقاً لعنوان إحدى قصائدها في مجموعتها الأخيرة «ذكر الورد» (1988) التي صدرت بعد رحيلها، تكاد أن تذوب وتتفتت من الوجع وآلام الجسد الذي أنهكته الأدوية ومباضع الجرّاحين. تقول: «أهدابي يتراكم عليها صدأ العزلة، وزرنيخ المنفى. أطلق سراحنا، فتحتَ لساني مصنّف مليءٌ بالإهانات، بذلٌ يكفي لنسيان جميع الحريات».

في بيتهما، في حي المزرعة الدمشقي، بالكاد نلمح صورة لها بالأبيض والأسود، تتكئ بخفر على أحد رفوف المكتبة، فيما تحتشد جدران صالة الاستقبال بصور الماغوط، واللوحات المرسومة له، وبورتريه معدني يجثم في ركن آخر. لعل في هذا المشهد الخاطف بالنسبة للزائر تكمن مأساة شاعرة فذّة كاد يطويها النسيان، مثلما طويت مذكراتها التي لا تزال بحوزة ابنتيها. المذكرات التي لا نشكّ بأنها ستزيح اللثام عن أسرار كثيرة، وعن أسئلة غامضة تشبه عُنوانها المقترح «سنيّة صالح، من أنت؟».

في بداياتها قصيدة «جسد السماء» التي فازت بـ«جائزة النهار لأفضل قصيدة نثر» في 1961 حيث تقول: «وها أنا أتدحرجُ كالحصى إلى القاع/ فليكن الليل آخر المطاف».

ما يشغلني في صوت سنيّة صالح ليس فقط فرادته، بل أيضاً، إمكاناته المُهدرة، تلك المناطق المجهولة التي كان ممكناً في حالتها - رغم كونها كاتبة عربيّة بدأتْ في ستينيّات القرن العشرين، ورغم لحظتها التاريخيّة المليئة بأنبياء الشعر - أن تفتحها ولم يحدث. إنني لا أقترح عليها تصوراتي هنا، ليس عندي أيّة اقتراحات على شاعراتنا الأخريات على أيّ حال؛ ولكن هناك ما يستفزني عند قراءة مجموعاتها الشعريّة الأربعة معاً، شعور وكأن هناك كنزاً قد بُدِّد الكثير منه في عُطلات الكتابة ومنعطفات الحياة، بل وعدم ثقة يجعل هيمنة الشعريّات المجاورة لها تغريها على أرضيّتها الجاهزة أحياناً.

يبدو لي أن قصائدها الأخيرة في «ذكر الورد» (1988) هي التطوير الممكن لقصائدها في مجموعتها الأولى «الزمان الضيق» (1964)؛ أقصد عمق الصوت ووضوحه ومدى حفره في الفجيعة الإنسانية التي شغلته طوال رحلته. في «الزمان الضيّق»، تحتلّك الصور لا الأفكار؛ تشم رائحة احتراق، لا تبهرك نار البعث ولا تقابل الفينيقيين في الصفحات، يخبرك صوت القصائد ببساطة: «أنا أسير/ بلا ليل/ وطني ورائي».

في مجموعتيها الثانية والثالثة، «حبر الإعدام» (1970) و«قصائد» (1980)، يمكنك أن تدرك الصوت نفسه وهو يتحمّل بخبرات جديدة، مثل الأمومة وارتباك الحب وهزائمه وخياناته، حيث يوجد ليل طويل في البيوت المهجورة ومطر منفيّ عن سمائه وفصول عظيمة لصيد الأعشاب وأخرى لحرقها وموت ينتظر على الأبواب وضحيّة تقتفي أثره. تجد في المجموعتين بعضاً من أجمل قصائد الشعر العربيّ الحديث من حيث توحّش الخيال وشفافية اللغة جنباً إلى جنب مع قصائد متعثرة في لغتها ومشاع في صورها؛ على سبيل المثال، تبدأ مجموعتها الثالثة بقصيدة «شام، أطلقي سراح الليل». يُدهشنا صوت أم لا يوجد مثله في القصيدة العربيّة حتى اليوم، حيث يكون على الأم أن تلد نفسها أيضاً: «أيتها اللؤلؤة/ نمتِ في جوفي عصوراً، استمعتِ إلى ضجيج الأحشاء/ وهدير الدّماء/ حجبتُك طويلاً... طويلاً/ ريثما يُنهي التاريخ حزنه/ ريثما يُنهي المحاربون العظماء حروبَهم/ الجلادون جَلْدَ ضحاياهم/ ريثما يأتي عصرٌ من نور/ فيخرج واحدُنا من جوفِ الآخر».

تقرأ في نفس المجموعة الشعريّة قصائد مثل «الحظيرة»، و«خريف الحريّة»، و«الفجر»، «مخصّصات النّسر الميّت»، و «جرذان التاريخ». إنها قصائد تجعلك تتساءل ما الذي أربك أو شتّت أو غيّب الصوت الذي تحبه؟ إنه ليس صوتاً مدعياً ولا مزيفاً مع ذلك، كأنه يشارك أحياناً في مظاهرة جماعيّة حتى يتم الانتباه إليه، أو لمجرد أن يتخلّص من وحدته التي تشبه «وحدة امرئ على أبواب الإعدام». ربما كانت سنيّة صالح نفسها تعي ذلك؛ أليست هي من كتبت: «فأين الهواء العظيم ليحمل الصوت/ المتألّم؟».

(لقد صرحتْ صالح قبل مجموعتها الأخيرة «ذكر الورد» بسنوات: «ليس لي أي طموح من أي نوع كان. أنا أعجز من أن أغيّر العالم أو أجمّله أو أهدمه أو أبنيه، كما يقول بعض الشعراء، ماذا يؤثر في العالم الكلام في الحلم؟ [...] إنما أحتفظ لنفسي بحرية الحلم والثرثرة»). أظن أن «ذكر الورْد» كان الطموح الذي سعت له صالح طوال رحلتها حتى ولو لم تصفه لنا خجلاً منها أو غموضاً منه؛ تحرّر الصوت الشعريّ من التذبذب ومن التعثّر بل ومن بعض الرقة التي وسمته أحياناً، ولم يعد يقيس ثقته في ذاته بحجم الأصوات المجاورة له. فيما قبل «ذكر الورد»، تغيب المدينة بشوارعها وعلاقاتها وضجيجها عن قصيدتها. تبدو الطبيعة بما فيها من ظلال وصراع وعنف وموت وكأنها مجال مناسب لحركة الروح أكثر من الأساطير والرموز والاستلهام التاريخيّ وغيره مما شغل حيّزاً كبيراً في قصيدة المجايلين لها. لكن في «ذكر الورْد» يحلّ الجسد محلّ الطبيعة، يحضر بتاريخه وذاكرته وعتمة رغباته وغضبه الشخصيّ الذي لم يلتفت له من قبل، كما تحضر الطبيعة التي تحرّك فيها والخطر الذي يهدده بالفناء. هناك عنفٌ وبصيرة وتدفّق لا تمسك بها إلا شاعرة كبيرة بحق. هذه هي القصائد التي أردتُ أن أكتب عنها منذ البداية ولكن ربما كان صعباً أن يحدث ذلك قبل أن أكتب ما سبق.

* شاعرة مصرية مقيمة في كندا

رسالة من محمد الماغوط

دمشق، في 5. 2 . 1963
أيتها العزيزة خالدة،
منذ شهور وفكرة واحدة تضرب رأسي وأعصابي كالرصاصة: ما هو العالم لولا تلك الإلهة النّحيلة، تلك الإلهة الرقيقة الحنونة، تلك التي سُمّيت صدفة «سنيّة» والتي كان يجب أن تُسمّى «العالم يبكي» أو العالم ذو القدمين الصّغيرتين. خالدة، لتذهب الكلمات الشعريّة إلى الجحيم. «سنية حياتي». (...) آه يا خالدة... لولاها... لولا تلك الابتسامة التي تشبه جرحاً فوق جرح، لَما كنت أجد أيّ مبرّر حتى لتحريك الأصابع والأجفان. (...) لقد تسلّخَتْ يداي من الكتابة، واغرورقت كلّ طاولات دمشق وبيروت بدموعي، وأنا وحيدٌ كالمسمار... (...) آه لن أنسى ما حييت ذلك اليوم القائظ، تلك الظّهيرة الخانقة من الصيف الماضي، حين رأيتها، سنية الحبيبة، بثوبها الأخضر، بجلدها الرقيق كجلد الشحرور، حيث جلسنا أمام بعضنا أشبه بطائرين يبكيان في قفصين متقابلين. (...) وعندما أراها مقبلةً إليّ في الريح وتحت المطر، بمعطفها الأزرق القصير، بعنقها الذي يشبه ناياً تسيل من ثقوبه الدموع (...) نظراتها الضّائعة أبداً والمحدّدة أبداً أشبه بنظرات طفل غريب. (...)
أنت شقيقتها! هل تأمّلتِ أصابعها ذات يوم؟ أبداً. إنه جاهل وطائش كلّ من يقول إنها أصابع... إنها مجموعة مشرّدة من القيثارات. أبواق بدائية تغنّي لوحوش تقوّست ظهورها من الزمهرير والوحدة... (...) أروع ما في سنية روحها... إنني أستطيع أن أراها تماماً... كما أرى قطرة المطر وراء الزّجاج... كما أرى الطائر بين الأغصان. (...)

مقاطع من رسالة أرسلها محمد الماغوط إلى خالدة سعيد بعد تعرفه إلى سنية صالح، وهي تُنشر لأول مرة في ملحق «كلمات» بإذن من شقيقتها الناقدة خالدة سعيد.

مقالات أخرى على موقعنا